مقدمة المترجم

1

في 19 يناير 2007، كتبتُ في جريدة البيان الإماراتية مقالًا عنوانه: «**أنيس البيطار.. مصري شارك في حكم فرنسا**»[1]، ومما جاء فيه أنَّ الحملة الفرنسية على مصر (1798-1801)، تحتل مكانًا مهمًّا في تاريخ مصر الحديث كونها عند الكثيرين بداية دخول مصر -والعالم العربي- العصر الحديث. ورغم أنَّها ليست حدثًا موغلًا في القِدم إلا أنَّ الكثير من حقائقها لم يُكشَف بعدُ، ربما بسبب التأثير الطاغي للثقافة الفرنسية في الواقع المصري إلى حدِّ تلخيص المؤرخ الفرنسي المعروف هنري لورنس هذا الدور الكبير بأنَّ فرنسا «**كوَّنت**» العالم العربي الحديث، وهو العنوان الفرعي لكتابه: «**المملكة المستحيلة**»، فالعنوان الفرعي للكتاب هو: «**فرنسا وتكوين العالم العربي الحديث**».

ومما أوردته في المقالِ المشارِ إليه أنَّ الشيخ الدكتور علي جمعة مفتي وزارة العدل المصرية، قال في حوارٍ مفتوحٍ معه بدار الكتب المصرية[2]: إنَّ «**الحملة الفرنسية على رغم فوائدها، فإنَّها عطلت النهضة المصرية بعد أن قضت على بذورها، وذلك بعد قتل نابليون نحو 1500 عالم من علماءِ الأزهرِ، في محاولة لكسر شوكة المقاومة ضد الاحتلال**». وهي معلومة صادمة لا تذكرها مراجع الحقبةِ المشار إليها وكأنَّ تاريخًا غير معلن ما زال يخرج إلى العلن.

(1) أنيس البيطار.. مصري شارك في حكم فرنسا، مقال، ممدوح الشيخ، جريدة البيان الإماراتية، 19 يناير 2007، رابط المقال:

https://www.albayan.ae/opinions/2007-01-19-1.136352

(2) جريدة العرب اللندنية، 21 يونيو، 2006.

وقد قادتني قراءاتي السابقة قبل نشر هذا المقال بقليلٍ إلى اكتشافي فصلًا مثيرًا من تاريخ العلاقات المصرية الفرنسية لم أجدْ عنه حرفًا في العربية وهو ملف «**أنيس البيطار**». وأنيس البيطار اسم صادفني في كتاب عنوانه: «**باريس تحت حكم الكوميونة**» للمؤرخة إليزابيث لاتيمار. وحكم الكوميونة تجربة ثورية كانت الملهم الحقيقي لمعظم النظم الثورية العربية. وبدأت قصة الكوميونة في 30 أكتوبر 1870 عندما انتشرت الأنباء في باريس عن استيلاء الجيش البروسي على قرية لوبورجيه الحدودية لتقرر أقلية ثورية يسارية أطلق عليها فيما بعد اسم الكوميونة أن تضعَ خطًّا أحمر على القرار السياسي للحكومة لتفرض الحرب بوصفها ردَّ فعلٍ وحيد، ثم لتتحول إلى سلطة جماعية تحكم باريس لمدة قصيرة هي زمن حكم الكوميونة.

واعتمادًا على يوميات كتبها بريطاني هو جون ليتون، وكان في زيارة لفرنسا وسجل تجربة حكم الكوميونة يومًا بيوم، واستعان بمواد صحفية وشهادات شهود عيان على مدى 73 يومًا. بحسب يوميات جون ليتون، تكونت الكوميونة من أكثر من 80 عضوًا، 60 منهم لم تُعرفْ أسماؤهم، وهو ما جعل المؤلف يتساءل عن قوة «**غامضة**» تتخفى وراء هذه السلطة الجماعية الثورية!

وبقية أعضاء الكوميونة الذين أُعلنت أسماؤهم كانوا خليطًا من مشارب مختلفة: متآمرون فاشلون في ثورات سابقة، صحفيون، خطباء... وكانت الفئة الأهم 12 عضوًا من غير الفرنسيين من: إيطاليا، وأميركا، والبرتغال، وروسيا، وألمانيا، والنمسا، وبلجيكا، وإسبانيا، وهولندا. لكن الأهم أنَّ الفيجارو الفرنسية عندما نشرت قائمة بأسماء أعضاء الكوميونة ضمت 23 اسمًا أولهم مصري اسمه أنيس البيطار كان يعمل في مكتبة عامة!

فمن أنيس البيطار؟

ومتى سافر إلى فرنسا؟

وما دلالة وجود هذا «**الثوري**» المصري في قلبِ هذا المجلس العالمي في هذا التوقيت المبكر؟

لم أجدْ إجابة. ولعله أمر لافت أنْ يظلَّ أنيس البيطار مجهولًا مع وجود سيل لا ينقطع من المؤلفات الفرنسية عن مصر في إطار ما يسمونه الولع الفرنسي بمصر.

هذا الذي كتبته في عام 2007؛ عدت إليه عندما قرأت هذا الكتاب (فرنسا العربية) وشرعت في ترجمته، فالباحث إيان كولر يؤكد ما استنتجته تمامًا، إذ يقول: «**هناك الكثير من الأدلة على أن تدفق الزوار ذهابًا وإيابًا بين العالم العربي وأوروبا كبير جدًا. أقدم من قرنين من الزمان، ويمتد إلى العصور الوسطى وما بعدها**»، وهذا موضوع مُغفَل يبلغ الغاية في الأهمية لثقافتنا العربية وتاريخ أمتنا.

2

هذا الكتاب أطروحة أكاديمية مهمة، وهي الأطروحة الثانية التي أترجمها بعد أطروحة الدكتوراة المعنونة بـ: «**فضاء المقدس لا يعرف الفراغ: تاريخ الإلحاد السوفيتي**»[3] للباحثة الأمريكية فيكتوريا سمولكين. إيان كولر مؤلف هذا الكتاب حاصل على دكتوراة في التاريخ، من جامعة ملبورن، أستراليا في 2006، وعمل في عدة جامعات في أستراليا والولايات المتحدة الأمريكية، ويعمل حاليًّا في مشروع بعنوان: «**أوروبا والإسلام والحداثة: الثورة الفرنسية والعالم الإسلامي 1789-1799**».

والكتاب يسد ثغرة مهمة في المكتبة العربية، حيث يحكي بتفصيل غير مسبوق قصة ذلك الخليط من البشر الذين قرروا -لأسباب مختلفة- الرحيل عن مصر مع الجيش الفرنسي المنسحب بعد فشل «**الحملة الفرنسية على مصر**» (1798-1801). وبموجب المعاهدة التي وقعها الجنرال بليارد مع القادة البريطانيين والعثمانيين في 27 يونيو 1801، ضُمِن أمن المصريين الذين تعاونوا مع الفرنسيين تعاونًا صريحًا، في حين أنَّ المعاهدة لم تتضمن أية إشارة على الإطلاق إلى مشروع الاستقلال المصري الذي كان أساسيًّا لرحيل هؤلاء المهاجرين من مصر.

وتحت هذا العنوان العريض عناوين أخرى بعضها يبلغ الغاية في الأهمية، أحد هذه العناوين اختار الباحث أن يكون نقطة البداية لكتابه، ونعني بذلك حضور الآخر في الفضاء العام الفرنسي. وكما ورد في مقدمة المؤلف، في أواخر أكتوبر 2005، «**ومع الانتهاء من المسودة الأولى لهذا العمل، قُتل المراهقان؛ زيد بينا، وبونا تراوري، في**

(3) صدرت الترجمة العربية عن مركز تكوين، السعودية، 2022، 559 صفحة من القطع الكبير.

حين أنَّ الشرطة تلاحقهما في ضواحي باريس». ومن هذه الواقعة يربط المؤلف بين دراسته والمشهد الفرنسي الراهن في القرن الحادي والعشرين.

وبعد 3 أسابيع من الصمت غير المسوغ على الاضطرابات الشهيرة، ظهر الرئيس جاك شيراك أخيرًا على شاشة التلفزيون ليعترف بأن فرنسا تواجه «**أزمة معنى، وأزمة قيم، وأزمة هوية**»، و«**لن نبني أي شيء ذي قيمة دائمة، إلى أن نحتضن تَنَوُّع المجتمع الفرنسي. وهذا التنوع مكتوب في تاريخنا: إنه ثرواتنا وقوتنا**». ثم يضيف إيان كولر «**هذا الكتاب مستمدٌ إلى حدٍّ ما من وفاة هذين الشابين، ومن النزاع الذي أعقب ذلك، ومن ذلك الاعتراف الذي انتُزِع بالإكراه من الدولة الفرنسية**». ومن الحقائق اللافتة التي يذكرها كولر أنه في تاريخ التنوع في فرنسا حتى الآن، نادرًا ما ظهر العرب محورًا للبحث إلى جانب، على سبيل المثال، المجتمعات اليهودية الفرنسية التي استُكشِفت حياتها ونضالاتها استكشافًا غنيًّا.

إن التساؤل عن الدور الذي أدّاه الأجانب في تطور فرنسا الحديثة كثيرًا ما بدا متناقضًا مع ما يمكن أن نطلق عليه: «**الإجماع الجمهوري**» في علم التأريخ الفرنسي. هنا تكمن صدمة عام 2005، وتداعياتها المستمرة.

ومن المعلومات الصادمة جدًّا في الكتاب أنَّ النموذج الفرنسي للمواطنة الجمهورية يميل إلى «**التعتيم على أي اهتمام بالثقافات أو المجتمعات المتميزة داخل الجمهورية**»، ويضيف إيان كولر: «**جمع الإحصاءات حول الأصل العرقي في فرنسا محظور بموجب القانون. ومن ثم، يَصعُب تقديم وصف حتى لـ «فرنسا العربية» اليوم، وذلك بسبب مقاومة السرد التاريخي الذي يضع الجمهورية باعتبارها مركزًا وذروة للتاريخ الفرنسي**».

3

أحد المصادر الرئيسة للكتاب مجموعة وثائق بالعربية معظمها رسائل بالآلاف مُتَبَادَلة بين: باريس، ومرسيليا، ودمشق، والقاهرة، وجبل طارق، وقبرص، وليفورنو، والجزائر العاصمة. وتُحَدَّد الحقبة التي يستعيدها هذا الكتاب بصورةٍ تقريبية من الغزو الفرنسي الأول للعالم الإسلامي الذي مهد لغزو آخر.

وهذا التاريخ الذي يقصده المؤلف (1798) اكتسب لما يقرب من قرنين مكانة لم يتوقف الجدل حولها حتى اليوم، فـ «**الحملة الفرنسية على مصر**» تبقى لحظة تاريخية غيَّرت شيئًا بين شمال البحر المتوسط وجنوبه، ولم يزل تيارٌ فكري مؤثرٌ يعدّها اللحظة الفاصلة التي دخلت بعدها مصر (بل العالم العربي كله) عالم الحداثة.

وموضوع الدراسة المحدد في هذا الكتاب، مسار الخليط البشري الذي ركب سفن الجيش الفرنسي عند انسحابها، فضلًا عن مصائر عدد منهم، وكذلك الروابط التي سمحت لبعضهم بالعودة إلى مصر بعد تولي محمد علي باشا حكمَ مصر. ويدّعي مؤلف الكتاب أنَّ المصريين والسوريين الذين استقروا في فرنسا خلال الجزء الأول من القرن التاسع عشر خلقوا أشكالًا جديدة من الحياة لا تنتمي إلى العالم الذي تركوه ولا تنتمي بتمامها إلى فرنسا حيث أسسوا حياتهم. وأنّهم بنوا «**فرنسا العربية**» الخاصة بهم. ويقول المؤلف: «**سيكون كلٌّ من الإسلام وأوروبا محوريين في هذا الكتاب**».

4

فيما يتصلُ بالعلاقة بين الحضور الفرنسي المفاجئ والأوضاع في الدولة العثمانية «**كان ضعف القوة المركزية في إسطنبول على مدى القرن الثامن عشر يُنظر إليه على نطاقٍ واسع في أوروبا باعتباره إشارة إلى تفكك الإمبراطورية العثمانية، وأنّ مقاطعاتها الغنية أصبحت جاهزة للقطف. في عام 1798، أرسلت حكومة المديرين، التي وصلت إلى السلطة بعدَ سقوط روبسبير والعناصر الثورية الأكثر تطرفًا في الثورة، أحد أقوى جنرالاتها (وأكثرهم إثارةً للقلق) في مهمة للاستيلاء على مصر، على أملِ كسرِ القوة الإمبراطورية المتنامية لبريطانيا بالاستيلاء على الطريق التجاري من الهند إلى أوروبا**».

واحد من العناوين الفرعية الأكثر أهمية في الكتاب -تحت سقف العنوان الرئيس- ما شاع لما يزيد عن قرنٍ من الزمان في كتابات غربيين وعلمانيين عرب من أنه «**كان من المفترض على مستوى العالم تقريبًا أن يكونَ عام 1798 بمنزلة نقطة تحوُّل في التحرك نحو «الحداثة» في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا. كانت هذه رؤية تصورت أنَّ الحداثة نتيجة حصرية وحتمية لتطور أوروبا المتفوق، في العالم القديم**

والجديد. إنَّها رؤية حلّت محلها الدراسات المعاصرة حلولًا شبه كاملٍ، وتؤرخ الآن بدايات التحول في الشرق الأوسط إلى القرن الثامن عشر، مع نضالات الزعماء المحليين من أجل الاستقلال الذاتي والنخب الفكرية الدينية من أجل تجديد التعلم، وهي العملية التي آتت ثمارها في النهضة في القرن التاسع عشر». وتتناقض هذه النظرة إلى أوروبا باعتبارها مجرد جزء واحد من عالم متحرك حركةً حادةً مع الصورة القديمة للمجتمع العثماني «**الراكد**» الذي استيقظ فجأة من سباته بفضل جيل أوروبا «**الشبابي**» الذي تجسد في شخصية نابليون بونابرت. ويصف إيان كولر درجة شيوع هذه السردية وترسخها لمدةٍ طويلة بقوله: «**حدد المؤرخون عام 1798 باعتباره حدثًا ذا أهمية خاصة في الشرق الأوسط والعالم الإسلامي الأوسع، إلى درجة أنه يمثل بالنسبة لبعضٍ «نقطة تحول» للحداثة في المنطقة. ويتكون الافتراض الكامن وراء هذا الرأي من شقين: الأول: أنّ المجتمع الذي واجهه الفرنسيون في عهد نابليون بونابرت في مصر كان راكدًا، ويتسم بالجمود الفكري، والجمود الاجتماعي، والشلل الاقتصادي؛ وثانيًا: أنَّ الفرنسيين جلبوا معهم أفكارًا وأشكالًا اجتماعية لم تكن معروفة سابقًا مستمدة من عصر التنوير والثورة الفرنسية، ووضعوا أسسَ التحول الذي حدث في مصر في عهد أسرة محمد علي في عشرينيات القرن التاسع عشر»**.

ويضيف كولر أنَّ هذا الادعاء المتعلق بعام 1798 أصبح يبدو رثًّا على نحو متزايد، و«**فقدت الصورة الاستشراقية للمجتمع الإسلامي الذي لا يتغيّر، والذي تحفزه الطاقات العلمانية الغربية قوتها المقنعة**». و«**فائدة التحول التاريخي بعيدًا عن هذا المفهوم الذي عفا عليه الزمن والمركزية الأوروبية العميقة لـ «اللقاء الحضاري»؛ زيادة الاهتمام بتجارب المصريين المحتلين وعلاقاتهم الملموسة مع المحتلين الفرنسيين، فضلًا عن التحولات التاريخية الأكبر التي تحدث في مصر والمنطقة، سواء داخل الثقافة الإسلامية السائدة أو تلك الخاصة بالأقليات الدينية والعرقية**».

5

بالقدر نفسه من الأهمية تأتي قضية المسار العكسي لانتقالِ بعض الراحلين مع الحملة الفرنسية عائدين إلى مصر والأدوار التي أدّوها في دولاب «**دولة محمد**

علي»، يقول كولر إنه سوف يؤكد دورَ العرب الفرنسيين في «**النهضة الشرقية**» في أوائل القرن التاسع عشر.

وقد اعتمد كتاب «**باريس العربية**» على عملِ أنور لوقا، المؤرخ المصري الذي استقر في فرنسا وكان لعقودٍ طويلة المؤرخَ الوحيد الذي أبدى اهتمامًا مستمرًا بالتبادلات الثقافية بين فرنسا ومصر في تلك الحقبة. وهذه الحقيقة التي يذكرها كولر قد تكون -في تقديري- مفتاحًا لإعادة بناء تاريخ مسار انتقال الأفكار بين الشرق الغرب، بل قد تكشف دراسات حول دور لوقا وآخرين في أداء دورٍ كبيرٍ في صناعة الصورة النمطية المشوهة للإسلام والمسلمين والدولة العثمانية.

ولعل مما يعزز هذا الفرض المنهجي الذي أدعو الباحثين العرب والمسلمين إلى العمل على اختبار صحته أنَّ إيان كولر يقول: «**خدم بحث لوقا المؤرخين المعاصرين خدمةً سيئةً إلى حد ما. بصفته قبطيًا محبًا للفرنكوفونية ووطنيًا مصريًا، قبل لوقا بالجملة الكثير من الافتراضات الأوروبية الأكثر شيوعًا حول الثقافة والتاريخ العربي وكثيرًا ما فشل في رؤية الغابة من وراء الأشجار**».

6

انطلقَ في أواخر أغسطس 1801 أسطولُ فرقاطات بريطانية من ميناء أبي قير في مصر تحمل بقايا الجيش الفرنسي الكبير الممزق، ووفقًا لرسالة محفوظة بين أوراق **لجنة مصر**، كان يعقوب حنا، وهو قبطي مصري وأول جنرال غير فرنسي في الجيش الفرنسي، يحتضر.

والمشار إليه (يعقوب حنا) أو «**المعلم يعقوب**» أحدُ أكثر ملفات التاريخ المصري الحديث والمعاصر إثارةً للجدل، حيث كان وصفه بـ «**الخائن**» يعبر عما يشبه الإجماع -الوطني والعلمي- قبل أن يظهر تيار يسوغُ انضمامه إلى الجيش الفرنسي المحتل برغبته في تحقيق «**استقلال مصر**»، وهو ما سيتحول إلى إطار عامٍ لرؤية كثيرٍ من العلمانيين وأبناء الأقليات لعقود قادمة.

وتفتح الحقائق التي يكشف عنها هذا الكتاب (فرنسا العربية)، أُفقًا أراه

جديدًا لفهم الدور الفرنسي الكبير -بل ربما المهول- في التاريخ العربي الحديث والمعاصر، وقد توقفت طويلًا أمام عبارة خطيرة أوردها المؤرخ الفرنسي المرموق هنري لورنس في كتابه: «**المملكة المستحيلة**». الذي نقلَ جزءًا من رسالة أرسلها الفيلسوف الفرنسي الشهير إرنست رينان[4] إلى وزارة الخارجية بشأن مستقبل مصر السياسي جاء فيها:

«إنّ أهمية مصر الاستراتيجية بالنسبة لملكوت البحار كما بالنسبة للاستيلاء على أعماق إفريقيا إنّما تشير إلى أنه حين يُؤدّي بلدٌ ما دورًا يمس المصالح العامة للبشرية؛ فإنّه يُضحَّى به دائمًا في سبيل هذه المصالح. والبلد الذي تكون له مثل هذه الأهمية بالنسبة لبقية العالم لن يسعه الانتماء إلى نفسه، إذ يجري تحييده لحساب البشرية... ومصلحة الحضارة الأوروبية هي التي تتطلب هذه التضحية. إنَّ مصر سوف تُحكمُ دائمًا من قِبَل مجموع الأمم المتحضرة... وسلالة محمد علي المالكة ليست سوى دمية بيدِ أوروبا، إن فرنسا على مدار ثلاثة أرباع القرن قد وجدت حلًّا لهذه المشكلة الصعبة، حلًّا سوف يكون مثار الإعجاب عندما تبين التجربة أية دموع ودماء سوف يدفعها العالم ثمنًا للحلول الأخرى. لقد ارتأت أن تحقق عبر أسرة مالكة مسلمة من الناحية الظاهرية (!!!).... هيمنة الروح الحديثة على هذا البلد غير العادي الذي لا يمكن تركه منتميًا إلى البربرية دون أن يترتب على ذلك إلحاق أذى فادح بالصالح العام». واستطرد رينان: «يرد محمد علي وأسرته المالكة على خاطره فورًا، وهو

(4) إرنست رينان (1823 – 1892): مؤرخ وفيلسوف ومستشرق فرنسي. عانى رينان أزمة إيمان أدت به إلى الارتداد عن المسيحية. حصل على درجة الأستاذية في الفلسفة في 1848، وحصل على الدكتوراة في الآداب في عام 1852 عن أطروحة موضوعها: «ابن رشد والرشدية». انتخب رينان عضوًا في الأكاديمية الفرنسية في 1878، ثم عيّن مديرًا للكوليج دو فرانس في 1883، وظل في منصبه هذا حتى وفاته في باريس.

https://arab-ency.com.sy/ency/details/6659/10

يصف الملوك اليهود المتأثرين بالروح الهللينية، الذين يخدمون روما بالخروج على روح إسرائيل الدينية»[5].

7

تكشفُ الفئاتُ التي غادرت إلى فرنسا من مصر جحمَ التنوع الكبير في الأقليات الذي كانت تشهده مصر قبل مجيء الحملة الفرنسية («**استمدوا أصولهم من جميع أنحاء الشرق الأوسط، من مصر وسوريا، وحتى من أماكن أبعد. لقد جاؤوا من جورجيا والقوقاز، ومن اليونان وآسيا الصغرى، ومن جنوب مصر والسودان، ومن فلسطين وجبل لبنان، ومن مدن البحر المتوسط في شمال إفريقيا**»، «**وكان القاسم المشترك الوحيد بينهم قرارهم الانضمامَ إلى الهجرة إلى فرنسا**»).

وهذا الخليط سيظل لعدة عقود يؤدّي دَورًا كبيرًا في اتجاه إضعاف ارتباط مصر بالدولة العثمانية وهو «**مشترك عام**» وحيد جمعهم على اختلاف مشاربهم، وهي ظاهرة أخرى تستحق الدراسة. وفي ظل هذا الإطار العام الجامع شكل المهاجرون إلى فرنسا -رغم أن كثيرين منهم لن يكونوا مصريين بأي معنى- ما أطلقوا عليه: «**المفوضية المصرية**»، وخاطبوا السلطات الفرنسية والبريطانية -نيابة عن الشعب المصري- لإقناعهم بضرورة احتلال مصر عسكريًّا لإنقاذها من «**الاستبداد العثماني**»!!

وفي نقضٍ صريحٍ لهذه الصورة النمطية المكذوبة يقول إيان كولر: «**رغم التوصيف المتكرر للنظام العثماني بأنه استبدادي وتعسفي، لم يكن بإمكان السلطان بأي حال من الأحوال أن يتجاهل إرادة شعبه، وقبل كل شيء آراء المثقفين الدينيين. وفي أوائل القرن، خُلع الكثيرُ من السلاطين في ثورات قادتها شخصيات شعبوية اتهمت الباب العالي بإهمال المهام التي فرضها الإسلام، أو الفشل في تحقيق الرخاء للشعب**». بل إنّه يقرر أنَّ هشاشة الهيمنة العثمانية في القرن الثامن عشر كانت سببًا في تشجيع: «**الانجراف نحو الحكم الذاتي**». وفي هذه المدة من غياب الاستقرار «**أُوليت مصر**

(5) المملكة المستحيلة: فرنسا وتكوين العالم العربي الحديث، هنري لورنس، ترجمة: بشير السباعي، دار الانتشار العربي، بيروت، سينا للنشر، مصر، بالتعاون مع المركز الفرنسي للثقافة والتعاون، قسم الترجمة، القاهرة، الطبعة الأولى، 1997، ص216.

أهمية مركزية في أوروبا من خلال التخطيط الاستراتيجي الذي لم تفقده أبدًا».

في المقابل، وبتأثير الدور المركزي للصراع بين الثوريين واستبداد أسرة البوربون الملكية الفرنسية، فإنَّ «**الأيديولوجيين الثوريين، عمومًا، يمثلون الإمبراطورية العثمانية باعتبارهم مجموعة من «القوميات» المضطهدة -اليونانيين، والسلاف، والأرمن، والعرب، والعبرانيين- التي ترزح تحت نير العثمانيين. غالبًا كان يُتصور هذا على أنّه موازٍ للاستبداد المزعوم للنظام الملكي الفرنسي المخلوع، وكان يُنظر إلى غالبية الرعايا العثمانيين على أنّهم شعوب ذات صلة بهم على وشك الثورة**».

وقد «**كان مثل هذا التحليل للإمبراطورية العثمانية في أواخر القرن الثامن عشر غير دقيق إلى حدٍّ كبيرٍ: وكما رأينا، فإن الكثير من المشكلات في مصر كانت نتيجة ضعف القوة العثمانية المركزية، وليس بسبب قبضتها الاستبدادية. بيدَ أنَّ التشابه بين الباب العالي العثماني والنظام الملكي الفرنسي -بصفتهما قوتين تقمعان الأمة- كان حاضرًا في أحيانٍ كثيرة في الخطاب الثوري**».

8

واحدة من المفاجآت الكبيرة في الكتاب أن نابليون بونابرت -على الأرجح- استمد تصوره للسلطة في فرنسا من تجربته في الحكم في مصر، يقول إيان كولر: «**بدا أنّ نابليون غادر مصر وهو متلهف للاستيلاء على نوع السلطة المطلقة التي مارسها في القاهرة**». و«**شكل الحكومة الذي سيُؤسس [في مصر] يمكن أن ينبئ مسبقًا عن شكلٍ آخر من أشكال الحكم، وهو شكل فرنسا نفسها. وبعبارات تسلسلية بسيطة، سافرَ نابليون مباشرة من مصر -تجربته الأولى في الحكم المباشر- إلى باريس**»، و«**خلال السنوات التي تلت ذلك، ظلت الدائرة الأكثر حميمية من مسؤولي نابليون ومستشاريه الإصلاحيين في فرنسا وعبر أوروبا الإمبراطورية هم أولئك الذين خدموا في نظامه الأول، الأولاد القدامى من مصر**».

وهكذا كما قرّر إيان كولر: «**كانت مصر أحدَ مهود الإمبريالية النابليونية، لكن ينبغي أيضًا اعتبارها بمنزلة اختبار حاسم للنظام البونابرتي للحكم المباشر في**

فرنسا، حيث كان النظام الفرنسي في القاهرة بمنزلة المقدمة الأكثر مباشرة للحكم المباشر في فرنسا».

9

لقد أدّتْ مصر منذ زمنٍ طويلٍ دورًا قويًّا في المخيلة الأوروبية؛ ومنذ عصر النهضة فصاعدًا، اعتمدت القوة الثقافية في أوروبا اعتمادًا متزايدًا على سلطة العصور القديمة، ما يشكل تحديًا لهيمنة كنيسة العصور الوسطى. وكان أغلبُ الأوروبيين لا يزالون ينظرون إلى مصر باعتبارها أصل الثقافة اليونانية والرومانية، وبالتالي باعتبارها نقطة انطلاق «**الحضارة**» التي أدّت حتمًا إلى تطورهم الثقافي. وبحسب إيان كولر، أصبحَ هذا المفهوم الغائي للتطور الزمني محوريًّا في أوروبا، وهو فكر في عصر التنوير. وبهذا المعنى، لم تكن مصر أرضًا بعيدة ومجهولة، بل كانت مشهدًا رئيسًا لإسقاط ماضي أوروبا ومستقبلها. في عام 1735، أكّد الأب لو ماسكرييه، في مقدمته لكتاب «**وصف مصر**»، أنَّ «**مصر كانت فكرة مألوفة بالنسبة للطبقات المستنيرة في أوروبا مثل باريس نفسها**». لكن الأهم -بل ربما الأخطر- قول إيان كولر إن «**الحملة المصرية لم تكن محاولة متقلبة لفرض نموذج اجتماعي غربي راسخ على الشرق الجاهل بقدرِ ما كانت «مختبرًا» تأمليًّا لتجربة الكثيرِ من أفكار التنوير خارج القيود الأوروبيّة المحلية**».

10

في روايته لمسيرة نابليون العسكرية في بلاد الشام يقول إيان كولر: «**عندما حاصر نابليون مدينة عكا، انضم كثيرٌ من المسيحيين من المنطقة المحيطة إلى القوات الفرنسية، ربما على أمل إعادة النظام المواتي للغاية الذي عاشوه في عهد ظاهر. كما ركزت التصريحات الفرنسية كثيرًا على «الوطنية العربية»: وقد ركز نابليون بشدة في روايته اللاحقة لحملاته العسكرية على دعمه «للأمة العربية» ضد «الأتراك». وبطبيعة الحال، لم يكن لهذه القومية العربية أيّة قاعدة في المجتمع العثماني: كان النسب «العربي» مسألة نسب، وليس سياسة، أو عائلة وليس أمة**».

ودور التأثير الفرنسي في غير المسلمين وشرائح محدودة من النخبة المسلمة فيما يتصل بإحلال «**رابطة عربية**» محل الرابطة الإسلامية يمثل البدايات الجنينية لـ

«**الخطاب القومي العربي**»، وهي حقيقة ينبغي استحضارها عند التأريخ لدعوة القومية العربية، ومن الجدير بالذكر هنا قول إيان كولر إنّ «**المرجح أنْ نجد تربة أكثر خصوبة لمثل هذه الأفكار القومية بين العرب المسيحيين في فلسطين وسوريا**».

وبعد؛

فإنّ الكتاب يتصف بثراءٍ شديدٍ ويُقدِّمُ إسهامًا يتصف بالأصالة في تاريخ الحقبة التي تناولها كاتبه، ويبقى أنّ الكتاب يسجل أنّ أحد أهم المهاجرين الذين غادروا مصرَ مع جيش الحملة كان من أوائل من وصفوا مصر بأنها معلم اليونان وروما، وتستحق بذل المزيد من الجهود لتحريرها. واصفًا الفتح الإسلامي لمصر بأنّه: تدمير وضياع على يد «**حشدٍ من التتار الأشرار**» الذين شوهوا الآثار الخالدة. وقد «**رفض جوزيف بغضب التاريخ الإسلامي لمصر الحديثة باعتباره استعبادًا وتخريبًا للتراث القديم لمصر**»، وهو ما يعيد تأكيده اليوم في القرن الحادي والعشرين مثقفون علمانيون متطرفون يعيدون إنتاج خطاب المعلم يعقوب بوصفه «**خيار المستقبل**»!

أسأل الله أن ينفع بهذا الكتاب.

ممدوح الشيخ